نحن أوفياء النظام ..

نصار عبد العليم

أسرع فى اليوم التالى إلى مباحث أمن الدولة ليرى ماذا فعلوا بأبيه..

قابله الرائد وجدى بابتسامة حنونة:

ـ «لو قلت لى إنك أتيت بتقرير فسوف تجعلنى أعيد النظر فى كل رجالنا الآخرين..»

ـ «لم آت بتقرير.. جئت أطمئن على أبى»

* * *

أيقظه من نومته فوق المقعد الخشبى فنهض وهو يفرك عينيه:

ـ «هـل جئت؟ ظننتك الرجل الذى يأتى لى بالطعام»

ـ «خلاص.. هـا أنت.. ستخرج من هـنا فى الغد، زمان أمى وإخوتى يأخذهم القلق»

ـ «فليأخذهـم الجنون.. ماذا يريدون منى؟، أنا هـنا آكل اللحم والدجاج»

ـ «عجيب.. وأنا الذى لم أهـمد حتى أحضر لك واسطة لإخراجك من هـنا..»

ـ «واسطة.. هـل الخروج من هـنا يحتاج واسطة؟»

ـ «طبعًا.. لأنك لا تعلم ماذا كـان سيحدث لـك..فأنـت اسـمك يشبه اسـم واحـد شيوعى»

ـ «آه.. فهمت.. الرجل الثانى اسمه عباس بك.. متولى زميلى قال لى..»

ـ «مضبوط.. ولذلك إذا سألك بدير والسيد عن سبب القبض عليك قـل لهـما هـذا الكلام.. وقل لهما إننى الذى أخرجتك بواسطة.. وإننى لم أعـرف منـك مسـألة الحشيش هـذه.. أو أن الحكومة عرفت هـذا الكلام حتى لا يعيشا فى قلق..»

ـ «لا تقلق من هـذه الناحية، فأنا قمت بالواجب ودافعت عنهما فى غيابهما..»

طرق أحد الجنود باب غرفة الحجز لينهى أمير زيارته لوالده، فقام مسرعًا وهـو يعيد توصياته لأبيه.. ويعده مكررًا بقدومه غدًا عند الظهر لإخراجه.

وأسرع إلى مكتب الرائد وجدى.

وبعد جلسة طويلة معه عاد إلى المدينة الجامعية برأس مزدحم.. وقلب مضطرب.. ومشاعر قلقة.. فالتعليمات، والتوصيات، والتحذيرات، والتفاصيل كلها تشير إلى أنه قد رُشح لعمل خطير.. عمل يعتمد على نظام دقيق، وحساس، وجرىء.. عمل لا يحتمل نسبة ضئيلة من الخطأ أو التهاون.. «فأعداء البلاد يتربصون بها فى كل مكان.. فلا تفترض حسن النية فى كلمة عابرة.. أو نظرة شاردة.. أو نكتة ساذجة.. فالعابر والشارد والساذج قد يكون به مكمن الخطر..»

وفى المدينة الجامعية فوجئ بالسيد يهبط الدرج.. وما إن رآه حتى هتف به:

ـ «أين كنت؟.. أبحث عنك منذ ثلاث ساعات، هل عرفت ما حدث لأبيك؟»

فتقمص مسرعًا سيماء الهدوء:

ـ «أنا قادم من عنده الآن»

هتف السيد:

ـ «وأين هو؟.. ولماذا قبضوا عليه؟.. وماذا فعل؟.. وما هو مصيره؟..»

تمادى أمير فى أن يكسو صوته وملامحه وانفعالاته بمزيد من الهدوء:

«لا تقلق هكذا.. أنا أخذت بعض معارفى اليوم إلى هناك وعالجت الموضوع»

ـ «هناك؟.. فى أى مكان هو؟»

ـ «مباحث أمن الدولة..»

ـ «يا نهار أسود»

ـ «قلت لك لا تقلق، أنا تدخلت وعالجت القضية..»

ـ «أى قضية.. أفهمنى.. ما علاقة والدك بأى شىء يتعلق بأمن الدولة.. أكيد فيه خطأ»

ـ «هـو كما قلت تشابه فى الأسماء..»

وصمت قليلًا، ثم أوضح بلهجة الفخر:

ـ «ولكن ليس معنى هـذا أن يخرج فى اليوم الثالث.. لقد أخرجناه بمعجزة»

ـ «هـل أخذت معك محاميًا؟..»

ـ «لا.. لا.. معارفى الكبار وقفوا بجانبى وأنهوا الموضوع.. ثقة بى»

تفحصه السيد ببعض الذهـول والشك:

ـ «يعنى بسم الله ما شاء الله أنت صرت من ذوى المعارف المؤثرة إلى هـذا الحد؟..»

ـ «تعال معى غدًا لترانى وأنا أتسلمه.. لا.. لا.. لا داعى أن تحضر معـي.. لا داعـى أن تظهر هـناك أصلًا»

ـ «نعم؟!! ما معنى كلامك هـذا ؟..»

ـ «اعذرنى.. لا أستطيع أن أوضح لك.. يكفى أننى اطمأننت عليه»

ـ «ولا داعى أن أطمئن أنا؟..»

ـ «واطمئن أنت أيضًا.. بناء على اطمئنانى»

وما إن أنهى أمير كلامه المراوغ حتى اندفع السيد منصرفًا من أمامه فى غضب ودون سلام.

* * *

وبعد يومين ناداه أحد الزملاء فى صالة المطبعة:

ـ «ياأستاذ سيد.. تعال رد على التليفون.. بدير أخوك»

وفهم من بدير شيئين.. الأول أن والده قد عاد بالأمس فعلًا.. أمـا الشـىء الثـانى أن عنتر مكاوى سلم لخميسة رسالتين ليس فيهما ما يمكن أن يلفت نظرهـا أنهـا رسـائل بهـا حشيش.. فالرسالة الأولى بها ثلاث دست من الكراسات والكشـاكيل وحـذاءين واحـد لعاشور والآخر لعوض.. وأما الرسالة الثانية، فكانت أقمشـة للبنـات وأمهـن وزوجـين آخرين من الأحذية أحدهـما لعباس النحّال والآخر لولده عرفة.. ولم يفهم أحد ممن سمع المكالمة أن هذه ليست هدايا للأهل إنما هى رسالتىْ حشيش.

أسرع فجلب لخميسة الجوب الأبيض وانطلق إلى البلد ليقابل والده.

وهناك راح يطرح عليه الأسئلة الباحثة عن إجابة بعينها:

ـ «هـل نما إلى علم أمير خبر عن نشاطى أنا وبدير؟.. النشاط الذى تعرفه..»

ـ «لا يا ولدى؛ لأنى قد فهمت أنكما لم تخبراه بذلك..»

ـ «والناس الذين قبضوا عليك ألم تشعر أنهم يعرفون شيئًا عن هـذا الموضوع؟..»

ـ «أيضًا، لا يا ولدى.. ومن أين سيعرفون؟..»

ـ «وهـل أمير فعلًا هـو الذى اجتهد وقام بفك سجنك من هـذا المكان؟»

ـ «أمير كان فى هـيئة البشوات الذين حضر معهم وخلصونى..».

ثم وضل السيد إلى السؤال الأكثر غموضًا وأهـمية:

ـ «وكيف عرف أمير أنك مقبوض عليك وموجود فى سجن مباحث أمن الدولة؟»

تلجلج عباس النحّال.. ولكنه سرعان ما عثر على منفذ لسؤال لم يكن فى الحسبان.

ـ «كانوا قد عرفوا منى هـنا فى البلد أن لى ولدًا فى كلية التجارة.. وأنا طلبت مـنهم أن يحضروه لى..»

ولما شاهـد علامات الارتياح تبدو على وجه السيد داخله هو الآخر ارتيـاح مماثـل وصـفق لنفسه أن خرج من هـذا التحقيق بما يحفظ وجهه أمام أمير دون أن يفكر فى سر توصـيات أمـير وتحذيراته.. وسرّ مطاردة السيد لخطوات أمير.. ثم سرّ إقحامه للتوفيق بين مطلبيهما..

* * *

وعند خميسة تخلى عن تأففه وهـو ينتظـر انصراف بعـض الزبـائن مـن عندهـا وكـان يتأملها بود وشغف حرص أن تلحظ الفتاة أنه ود المشتاق وشغف العاشق الغائب.

وما إن خلا أمامهما جو الدكان حتى أسرع فسحب هديتها من حقيبته الصغيرة، وقـال لها:

ـ «كما وعدتك.. لم أشأ أن يحملها لك عنتر مكاوى شأن هـدايا إخوتى..»

ـ «حملك ثقيل يا سيد.. يكفى ما أنت فيه من هـم إخوتك التسعة.. واحد منهم معـك هـناك.. ستحمل هـم من ثم من ؟..»

ـ «حظهم إن عنتر يأتى إلى أهله هـنا مرتين فى الشهر.. الرجل خفف عنى..»

ضحكت ببراءة:

ـ «هـو خفف عنك التوصيل، وأنت أثقلت على نفسك بالشراء»

بادلها السيد نفس ضحكتها البريئة:

ـ «من ناحيتى أنا ضامن ألا يزهـق لأنه يحبنى.. المهم ألا تزهقى أنت»

لم تدعه يكمل حديثه:

ـ «هـل هـو وحده الذى يحبك؟.»

ثم لمعت عيناها فجأة :

ـ «على فكرة جاءنى فتيان هنا.. وسألنى عن عنوانك فلم أعطه له.. لماذا يسأل عنك بهذا الاهتمام؟»

ابتسم فى لامبالاة.. وأخرج قلمه وطلب منها ورقة صغيرة.. وراح يكتب عنوانه:

ـ «هو طبعًا سيعلم أننى كنت هنا عندك اليوم وسيأتى لسؤالك عنى.. فأعطه هذا العنوان»

راحت تقرأ ما كتبه بصوت مسموع:

ـ «شبرا ـ ٦ شارع الخازندار ـ المؤسسة القنية للمصاعد ـ عنوان من هذا؟»

ـ «هو عنوانى وكفى.. أعطه الورقة.. لا أريده أن يعرف مكانى.. فتيان مزعج..»

هزت رأسها بتساؤل: «هل تضلله؟..»

ـ «أجل»

ـ «ولم..؟.. فإما أن تعطى له العنوان الصحيح.. أو تتخلى عن ذلك»

ـ «حتى لا يزعجك كل زيارة بالسؤال»

ـ «الإزعاج بالسؤال أهون من أن يسخط عليك إذا عرف أنك ضللته..»

ـ «لا تأخذى الأمور بكل هذه الجدية.. الخطوط المنحنية أحيانًا تكون هى الأفضل»

ابتسمت فى إعجاب: «هل هذا شعر جديد؟.. أم حكمة خرجت بها من الشعر؟»

ـ «هى تجارب الحياة.. وخلاصتها المقطرة..»

ـ «خطابك الوحيد لى كان مليئًا بالأوامر والتعليمات..»

ضحك مليًّا: «هل ضايقك ذلك؟»

ـ «كنت أحلم بحديقة زهور.. فأمسكت بمخزن أخشاب..»

واصل ضحكاته وهو يمسك حقيبته استعدادًا للانصراف:

ـ «إذن، سأعود للزهور.. لا تنسى أن جدى لأبى كان جنائنيًّا..»

* * *

وفى الاجتماع الأول لاتحاد الطلبة المنتخب لم يكن أمير النحال العضو الجديد قريبًا فى جلسته من مقعد نصار عبد العليم، ولكنه كان فى مواجهته يتأمله فى هدوء ويتفحصه فى صمت.

أيقن أن نصار عبد العليم وضع يده على حقيقته، واكتشف أن الرجل الأرستقراطى الذى يربى الخيول والزهور ليس والده لأنه غير موجود إلا فى خياله المريض، وأن «عباس» النحال الحقيقى هو جامع الروث، وحامل الأتربة، ورفيق البهائم «هذه هى الحقيقة، ولكنى لن أعترف بها فليظل عباس النحال كما هو زارع الزهور ومربى الجياد والقابض على سيجار الفخامة بيد مرصعة بخاتم من الماس.. فكل الذين حول نصار عبد العليم ما زالوا على قناعتهم أننى ابن الرجل الميسور صاحب العزبة.»

أفاق على مختار يناديه وهو يضع برامج الأنشطة الطلابية:

ـ «وأنت يا أمير صرت مخيرًا بين الإمساك بإحدى لجنتين.. إما اللجنة الثقافية.. أو لجنة الرحلات»

فرد عليه مسرعًا:

ـ «الرحلات.. إذ يمكننى أن أدعى أننى أملك برنامجًا لها ليس تقليديًّا..»

ـ «إذن، فما هو أهم ما فى برنامجك؟»

ـ «الريف.. جنان مصر المنسية.. كلهم يركزون على الآثار.. لا مانع.. رغم أنها فى نظرى أحجار ميتة نحن نجتهد فى استنطاقها.. أما الطبيعة الناطقة بروح الإبداع الإلهى وجهود الفلاح الفنان، فهذا ما لم نلتفت إليه..»

ـ «إذن، فنحن على موعد أن تكون الرحلة الأولى فى عزبة السيد الوالد.. إنها كما أعلم

مليئة بالزهور والخيول والطبيعة الخلابة..»

ـ «أنا فعلًا وعدتك بزيارة خاصة إلى عزبة السيد الوالد والآن أعلن أنها ستكون زيارة جماعية..»

وبعدها صار الاثنان لا يعلمان سرّ تربع كلّ منهما فى عقل الآخر يعنفه فى صمت ويوبخه فى غيظ.. ويتأمله بمنظار خاص.. خاص جدًّا ..

وبعد انتهاء الاجتماع وانصرافهم تباعًا طلب نصار عبد العليم من أمير بالبقاء.

وبكل هدوء وثقة تمهل أمير وهو يرنو بنظرات مراوغة إلى هذا الشاب النابه الوسيم الذى كاد أن يلقى به فى نار الجحيم بخطاب مكون من صفحة واحدة إلى مباحث أمن الدولة.. ولولا اجتماع كل مظاهر الحقارة والوضاعة فى حال والده لما أمكن نسف مفعول هذا الخطاب.

رماه مختار عبد العليم بنظرة ثاقبة وهو يبحث عن كلمات يبدأ بها حواره:

ـ «أريد أن أعترف لك يا أمير أننى حتى الآن فشلت فى أن أفهمك..»

ـ «هذا عكس حالتى، فأنا قد فهمتك وأحببتك حتى أنك صرت مثلى الأعلى..»

بحلق فيه مختار وقد تدلى فكه إلى أسفل تعجبًا مدة لا بأس بها.. إلى أن قال له:

ـ «أمير.. من أنت؟..»

ـ «أنا ابن إقطاعى يربى الخيول والزهور.. بفارق واحد أنه هو وخيوله وزهوره من صنع خيالى، أليس هذا ما تريد أن تتأكد منه؟..»

ـ «ولكنك يا أمير وعدت اللجنة كلها بقضاء يوم فى عزبتكم الوهمية..»

ـ «ها أنت قد قلت إنها وهمية.. فأين سيعثرون عليها؟..»

ـ «وكيف ستتصرف؟»

ـ «قبل الرحلة بأسبوع سأعلن حزنى بطريقتى الخاصة على الملأ؛ لأن والدى جن فى عقله وباع العزبة»

ـ ندت عن مختار ضحكة مفاجئة وهتف:

«أنت.. شيطان»

ثم واصل إعجابه:

«سأكتب «للجماعة» ألا يستهينوا بك»

فهم أمير على الفور من هم «الجماعة».. ولكنه لم يفهم معنى ألا يستهينوا به.

ـ «تقصد أن الكتابة «هذه المرة « ستكون فى صالحى»

ـ «وهل تشك فى ذلك؟ أنت مكسب غير مسبوق لحراس النظام..»

ـ «هل تسميهم هكذا؟..»

ـ «ونحن أوفياء للنظام..»

ـ «ونحن اسمنا هكذا؟..»

ـ «أجل نحن أوفياء النظام ..»

* * *

واكتشف فى نفسه كثيرًا من الملكات المختبئة وهو يوظفها فى موقعه الجديد، وانتشر فى كل اللجان مدعمًا وناصحًا ومقترحًا، فهو فى لجنة الرحلات وعينه على اللجنة الثقافية، وكانت مقترحاته فى الأخيرة سببًا فى أن يوكل إليه نصار عبد العليم بعض مهامها دون أن يحس رئيسها بتوفر بعض سوء النية فى تهميشه، فقد استولى أمير النحال على صلاحياته بنعومة ويسر. ثم وعينه على نصار عبد العليم يشرع فى كتابه كلمات مأثورة من خطب الزعيم على ورق مقوى يعلقه على واجهات المبانى والطرقات حريصًا أن تكون بها بروفيل لعبد الناصر بابتسامته الواسعة.

ولما جاءت إجازة نصف العام لم يعد إلى القرية مثل فريد هنيدى ورأفت إبراهيم؛ لأنه كان يقود رحلة الكلية إلى الأقصر وأسوان. هذا ما قاله بدير لفريد ورأفت، وهذا ما عرفه بدير من السيد الذى كان يضرب كفًّا بكف متعجبًا من انقلاب حال أخيهما أمير الذى لم يعد يطلب لنفسه مالًا، ويرفض ما يعرضه عليه السيد من مال.

ـ تُرى على أىّ منهما وقع أمير: «امرأة لعوب أم رجل شاذ؟»

ولم يتمكن بدير من الإجابة آملًا ألا يكون أمير «الخفيف» قد وقع فعلًا فى إحدى هاتين المصيبتين.